

التراث الشعبي والنقد النفسي

د. إيمان ملال

جامعة خنشلة

الملخص

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على جنس أدبي طالما ظل مهملاً من الوجهة النفسية (التراث الشعبي) على اعتبار أن الرؤيا التراثية ترى أن الإنسان كائن عاقل وليس كائنًا بيولوجيًا، وهو مصدر الاتجاه المعرفي الذي نادى به علم النفس العام، وملخص عرضي هذا - محاولة مني - أن ألج العالم الداخلي النفسي لأبطال الحكاية الشعبية من خلال عرض أهم قصص الكاتب اللبناني نعوم طنوس والتي حاول أن يطبق فيه معالم التحليل النفسي الفرويدي، إضافة إلى تحليل الأقوال المأثورة التي استأثر بها سمير عبده في كتابه "التحليل النفسي للأقوال المأثورة"، أين شق التحليل النفسي طريقه إليه، ولم يقتصر على الحكاية الشعبية.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية؛ التحليل النفسي؛ النكوص؛ الأقوال المأثورة؛ السلوك؛ المثل العليا؛ الطباع.

Abstract

The aim of this research is to highlight a literary genre that has remained psychologically neglected (the folklore) considering that the heritage vision holds that man is a rational being and not a biological entity and is the source of cognitive trend advocated by the general psychology. This is an attempt to introduce the psychological inner world of the heroes of the popular story by presenting the most important stories of the Lebanese writer Noam Tannous, who tried to launch the features of the Freudian psychoanalysis in addition to analyzing the famous sayings that are unique to Samir Abda in his book "Psychoanalysis of the famous sayings" where psychological analysis found his way to him and not limited to the folk tale.

Key words: Folk tale, Psychoanalysis, recoiling, Famous Sayings, the behaviour, the ideals, innate dispositions.

التراث الشعبي والنقد النفسي

يرى فرويد أن اللاشعور أو العقل الباطن هو مصدر عملية الإبداع الأدبي، وما نتاجه سوى صورة لتاريخ حياته الباطنية، ويضيف كارل يونغ Carl Young، أن لاشعورنا قد ورث عبر التاريخ، فهو يمت بصلة لكنوز الذاكرة الإنسانية الموروثة وما يتصل بها من أساطير وشعائر وأهازيج بدائية، وما يمكن أن يرد إلى نسيج شعبي وإلى عقلية شعبية مبدعة، وبالتالي يفسح المجال للمهتمين وللمتحدثين من الموروث الشعبي ومن الآداب الشعبية، ومن هذه الأخيرة قصص الأطفال المتداولة. جمع الأديب الراحل كرم البستاني عدد لا بأس به من هذه الحكايات، ودونها بشيء من التصرف أحيانا في كتاب عنوانه (حكايات لبنانية)، ولكنه لم يجمع شتاته في دراسة عملية تعتمد منهج معين إلى أن جاء جان نعوم طنوس فكتب الفصل بعد الفصل في تحليل إحدى الحكايات وتركه جانبا إلى أن تسنى له الوقت وأخرجه في حلة جديدة ونشره بعدما استكمل أجزاءه، خاصة وأن المكتبة العربية تفتقر إلى هذا النوع من الدراسات السيكلوجية - على حد تعبيره -.

(التحليل النفسي لحكايات الأطفال الشعبية) هو العنوان الكامل للباحث نعوم طنوس وهو يقول "...ومن خلال العنوان يكشف القارئ أنني اعتمدت منهج التحليل النفسي في تحليل حكايات الأطفال الشعبية، غير أن هذا المنهج لا يقتصر على تيار دون آخر، فقد أفدت من التيارات المتضاربة أحيانا في التحليل النفسي، وحاولت أن أطعمها بثقافة متنوعة نعني البحث وتزيده رواء" (1).

وبضيف قائلًا حول تبنيه للمنهج النفسي: "أما فيما يتعلق بالتحليل النفسي فإني أهيب بالقارئ العربي أن لا يشيح النظر عن هذا المنهج الذي يتراءى لبعضهم منحصرًا في سفاح القربى وقتل الأب، فالتحليل النفسي يدلنا إلى طريق السلام الداخلي، فلا يجب أن يرهبنا خصوصًا حتى أحسنًا استخدامه، نعم، لقد دلتنا الخبرة على أن القارئ يشمئز من تحليل يقول له أن البطل قتل أباه وتزوج أمه، ولكنه سيجد هنا نوعًا آخر يتفق مع قناعاته، وفي الوقت نفسه يسعى إلى تطويرها. فليس للقيم خشية خلاص، فكيف لو جاء التحليل النفسي مؤكدًا هذه القيم عاملاً على اكتشاف أبعادها؟ إذا، أن يشيع هذا النمط من التحليل، وأن لا نرفض شيئًا لا نعرفه حق المعرفة، وعندئذ نكتشف أن في داخلنا ثروة كثيرة شريطة أن نحسن استخدامها⁽²⁾.

1- الصراع النفسي في الحكاية الشعبية

يبتدئ الصراع في حكاية (الأطفال الشعبية) عندما يتغافل الإنسان الشريف أو النبيل عن النوازع الخبيثة التي تعمل في باطن الإنسان الشرير أو الوضع، إن نقصه الكبير في معرفة النفس البشرية يدفعه في رحلة مضنية من العذاب والاضطهاد حتى يحصل على المعرفة المفقودة، فتتفي بذلك عوامل الصراع.

الإنسان الوضع، عبارة أخرى، ما كان ليحرج على الاستخفاف بسلطة الخير لم يكتشف فيها ثغرة أو عجزًا معرفيًا ناضجًا. لكن الإنسان النبيل، بسبب تمسكه بالمثالية الأخلاقية قابل للتصور واكتساب الخبرات الجديدة، إنه إنسان الأمل والصورورة في حين أن الإنسان الوضع يائس من إمكانياته، كافر بالمثال، يترصد بالإنسان النبيل محاولًا القضاء عليه على الرغم من إحسان هذا الأخير له.

إن الصراع بين الخير والشر هو القضية الأساسية في الحكايات الشعبية، وجوهر الأصل هو انتصار الحق على الباطل، والقوي على الضعيف، كما أن لها وظائف عديدة: وظيفة فنية، وظيفة معرفية، وظيفة سحرية، وظيفة أخلاقية، ولا يمكن أن تموت الحكايات إلا إذا مات العالم نفسه، وفي ذلك يقول شيلر: "وجدت دائمًا في الحكايات الشعبية التي رووها لي في طفولتي من المعاني العميقة أكثر بكثير من كل الحقائق التي علمتني إياها الحياة"⁽³⁾.

إن حكايات الأطفال من هذا المنظور ليست تسلية مجانية، أو نزعات تدهش الصغار، إنها تصوير حي ودقيق لمشكلات النفس البشرية التي يعانها الطفل والمراهق، لذلك يجب أن تتبوأ مكانها المرموق، لاسيما أنها تخاطب المخيلة، وتستثير الوجد، وتدلل على مراحل النضج المعنوي متبعة القاعدة الذهبية القائلة "اعرف نفسك، فالمعرفة قوة".

استثمر الباحث بعض مقولات التحليل النفسي، فوظف بعضها منها، إضافة إلى تركيزه على الأساطير والرموز، فكانت دراسته نوعًا ما - نفسية - بالمفهوم الفرويدي، حيث اعتمد على اللاوعي، العقدة الأديبية، النكوص، الكبت، الرجولة، الأنوثة، مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، إلا أنها لم تكن بالدراسة الدقيقة، فلا يفضل في كيفية تجسيد العقدة لدى الشخصية وإنما تحليله كان عابرا وسطحيا. وحمل الحكاية لشعبية للأطفال ما لا طاقة لها، "فالطفل لا يشعر بكل هذه المدلولات التي أكد عليها الباحث، ولا قدرة له على استيعابها، غير أنه يصورها في مخيلته على أنها حكايات تحدث في الواقع، والمهم له في النهاية أن ينتصر الخير على الشر، دون أن يعرف السبب"⁽⁴⁾.

من الموروث اللبناني الذي حلله الباحث، نجد مجموعة من القصص الشعبية التي ربطها بدلالاتها النفسية مباشرة، وهي كالتالي:

- حكاية لمس أميرة بيروت: من الاضطهاد الأسري إلى الوعي والسعادة.

- ثريا بنت الغول والكلبة السوداء: حكاية النضج والتحرر من الماضي الأوديبي.

- حكاية الست ورد: زواج الجسد والروح والتحرر من العلاقة التبعية.

- حكاية الأمير الخطاب: فن التخلص من المآزم الأديبية.

- الشاطر حسن: دخول أرض الرجولة الموعودة.
- حكاية الليمونات الثلاث: التحري من خشية الجنس الآخر.
- حكاية يا عبد يا بربري: رهاب الجنس والمرأة المنقذة.
- حكاية الأخوات الثلاث: مراحل نمو الشخصية واستقلاليتها.
- أما باقي الحكايات فكانت تحمل عناوين من المغزى العام للحكاية وهي:
- حكاية كيد النساء غلب كيد الرجال، هل المرأة شريرة؟ أم خيرة؟
- كنوز الفضيلة وكوارث الرذيلة في حكاية: غنية شريرة وفقيرة فاضلة.
- حكاية عقاب الظلم وثواب الفضيلة: رحلة العذاب والاستشارة.
- حكاية الله يعطي: التحرر من التبعية وتحويل السلب إلى إيجاب.
- حكاية البليد الحظوظ: من ضعف المهمة إلى علوها.
- حكاية لا فرار من المقدور: تمجيد القناعة والثبات.
- حكاية البسيط القلب: تمجيد السذاجة.

ولنأخذ مثال على ذلك ولتكن حكاية (ثريا بنت الغول والكلبة السوداء) أو حكاية (النضج والتحرر من الماضي الأوديب). حاول الباحث تفسير هذه الحكاية على أنها تجسيد لعقدة أوديب وعقدة ألكترا؛ (أي تعلق الابن بأمه في الأولى وتعلق الفتاة بابيها في الثانية) فحلل رمزية الحكاية أكثر من عقدتها، حيث تنطوي على رموز كثيرة جنسية ردها الباحث إلى عقدة أوديب المستورة في التحليل النفسي، إلا أنها تبقى بعيدة نوعاً ما، حيث يدل السياق العام للحكاية على العلاقة الأبوية البنوية الناشئة بين الغول وثرثريا، فرمز إلى الغول على أنه الأب لدوره العدائي تجاه ابنته وجور القوانين المفروضة على بناته. تروي الحكاية قصة امرأة عاقرن ولشدة تشوقها إلى الأولاد نذرت، إذا أعطاه الله بنتاً أن تزوجه بأي كان حتى ولو كان كلباً أسود، وهنا يكمن الرمز الأول - كما يقول الباحث - وهو الكلب السود الذي يرتبط بمعاني الشهوية، فالحيواني من رمز الغريزة خصوصاً أن السواد يشير إلى ما تنفر منه النفس في الظاهر وتقبل عليه في اللاوعي، وحدث أن استجيب طلب المرأة فأنجبت بنتاً جميلة سمّتها ثريا وربتها في الدلال ثم أرسلتها إلى إحدى المدارس كي تتعلم. وكان أن التحق بها كلب، ذات يوم فخطبها أن لا تخافي وقولي لأهلك أن تفي نذرنا وإلا ضربتك ضربة قصفت بها عمرك.

فسر الباحث هذه الحادثة على أنها رمز حكاية ببلوغ الفتاة مرحلة النضج الجنسي كأن يأتيها الطمث، أو تستبد بها الحاجة إلى الجنس الآخر. ومن المفروض، تبعاً لذلك أن يطاوع المرء الطبيعة لأن التمرد على قوانينها يعني الهلاك كما تدل على ذلك عبارة (قصفت عمرك)، ولعل مشاكل المراهقين والراشدين تكمن في التجاهل الكلي لمطالب الطبيعة التي تتناول الحاجات الجسدية والمعنوية إلى الجنس الآخر، وطبيعي أن تخشى الفتاة المراهقة، بادئ ذي بدء، هذا الأمر فلا تجرؤ على إخبار أمها. تتكلم الحكاية الشعبية بلغة الرموز النفسية. فالغول هنا رمز الأب، والصحيح أن تحول الكلب غولاً يفيد اتجاه هذه الشهوية تجاه الأب، فالغول هنا ما هو إلا صورة للجبّار الكلي القدرة، وهنا جسد الكاتب عقدة ألكترا التي تنجذب فيها الفتاة إلى الأب، ولكن ليس لقسوته وجبروته وإنما كئانه وقوته الإيجابية، عكس ما أكده الباحث في قوله (الجبّار). فلا ترى مثال الرجولة إلا ما تجسد في والدها، ولذلك تجعله النموذج الأعلى على مستوى اللاشعور.

أخذ الغول الفتاة بيديه القويتين وأدخلها في قميصه وأنزلها منه وهو يقول "أنت الآن بمقام ابنتي، وستعيشين معي، في هذا القصر في راحة ونعيم" (5).

حلل الباحث هذه المقولة، على أنها عملية إدخال وإخراج (من القميص)، وترمز إلى عملية الولادة، فالقميص هنا بديل من رحم الولادة، وخروج الفتاة منه بمكانة خروجها من الرحم، وهنا التناقض، فتارة يفسر على أن الغول هو رمز للشهوانية، وتارة أخرى يفسره على أنه الرحم (دور الأم) أو الأب الحنون لتجرده من شهويته فيقول في ذلك "... لكنه يحيق عمليا، عملية النضج عند ثريا فتظل هذه مشدودة إلى قطب الأبوة في حين أن عليها أن تتعلق بقطب الذكورة"⁽⁶⁾، فأصبح بذلك الأب مرادف للغول.

وظف الباحث هنا مصطلح النكوص، حيث رأى أن الأنوثة في مرحلة المراهقة، تحتاج إلى ما هو أبعد من تلك الراحة التي تعد نكوصا طفوليا سلبيا محوره اللذة الفموية البدائية، فالأنوثة تظما إلى الجنس الآخر، كما تشتاق إلى المرور في مرحلة اختبار جديد، قد يولد صراعا نفسانيا لكنه ينتهي نهاية إيجابية، الملاحظ أن ثريا بطلة الحكاية لم تصل إلى هذه النقطة. فهي تصبو إلى ما هو أبعد من هذه السلبية الفردوسية التي تعيش فيها والتي تطيب للأطفال، هذا مع العلم أنها مازالت تشوق إلى أمها وأبيها وأهلها، بمعنى أن الصورية الوالدية، وليست الذكورية مازالت تشدها إلى الوراء وتستحوذ على كيانها.

يدل سياق الحكاية على العلاقة لأبوية البنوية الناشئة بين الغول وثرى، فالغول يطير كل يوم، ويترك الفتاة وحدها، وعندما يعود يناديها من أعالي الجو قائلا: "ثرى بنت الغول، بللي شعرك طول وطول، هيئي المشروب والمأكول، لبيك التعبان، العطشان العايد من أرض الغيلان"⁽⁷⁾، ومعلوم أن الأب يترك البنت للعمل، وعندما يعود يكون بأمس الحاجة إلى الراحة وإلى تناول الطعام والشراب، وطول شعر ثريا يشير إلى بلوغها مرحلة الأنوثة، أما أرض الغيلان فما هي إلا أرض الرجال حيث يعمل هؤلاء طول النهار، وثرى تقوم بواجباتها المنزلية المادية، كما هو مألوف عند الفتيات، لكنها بالإضافة إلى ذلك تلي عند الأب الحاجة إلى الحنان، فكان الغول ينطرح على فراشه فتقف عند رأسه تغليه إلى أن ينام.

من خلال ما سبق، ومن سياق الحكاية يتضح أنه وإن سلمنا بوجود عقدة، فهي عقدة ألكترا بدل عقدة أوديب، لأنه في هذه الأخيرة الصراع يقوم بين ثلاثة أطراف الأب، الابن والأم، والمثلث الأوديبى هنا غائب تماما، وإنما تجسده عقدة ألكترا، وقد تكون هي الأخرى منعقدة لأن الأب هنا يمثل رمز القهر والحرمان، فيقول الباحث في هذا السياق: "الملاحظ هنا أن الأب، أو البديل منه، تستبد به نزعة استحواذية امتلاكية بحيث يجعل ابنته أسيرة علاقته الأبوية بدلا من أن يدفع بها صوب المستقبل، حيث المغامرة واختبار أحداث الحياة"، ويضيف معللا هذا اللبس "...ينبغي على القارئ أن لا يضع بين صورة الأب والبديل منه، فما هما إلا جوهر واحد بمظهرين مختلفين، غير أن الحكاية الشعبية تموه على السامع حقيقة الأمر كي لا تستثير عنده ردة فعل غير مناسبة. فلو أنها تحدثت بصورة مباشرة، عن نزعة الأب الامتلاكية لخلقت، ربما، نزعة عدائية عند الطفل والمراهق، لذلك تتقنع الحكاية برموز نفسية كالغول، مع الإشارة أن الطفل يحس لاشعوريا بشكل أو بآخر، إن المقصود هو الأب موضوع الحديث.

عندما يأتي ابن عم ثريا لينقذها من يدي الغول، تتحرك مشاعر الذكورة لديها، وتتحمس للرحيل معه دون رضا الغول (الأب) فيقول الكاتب "...لقد تحررت البطلة، الآن، مع الماضي الطفولي الأوديبى الذي يشدها إلى سلطان الأب، وكانت مستعدة للانجذاب إلى القطب الذكري...". فالبطلة تقيم مسافة بينها والأب كي لا تضع الشخصية الناقصة إلى النمو والتحرر، ذك أن تضائل هذه المسافة هو ما يسبب عقدة أوديب (وهنا السياق مختلف وكذلك أطراف الصراع) التي تجعل الفتى ملتصقا بأمه، كما يسبب عقدة ألكترا التي تجعل الفتاة ملتصقة بأبيها وكأن لا رجل في الدنيا سواه، وهنا التناقض بعينه.

2- التحليل النفسي للأقوال المأثورة

شق التحليل النفسي طريقه إلى القوال المأثورة أيضا، ولم يقف عند حدود الحكاية الشعبية باعتبارها (الأقوال المأثورة) مجموعة

من الملاحظات كونها أشخاص نتيجة خبراتهم في المجالات الحياتية المختلفة، فمنها ما يتضمن النصائح والحكم، ومنها ما يتضمن الأسباب أو التفسيرات لسلوك معين، ومنها ما يضع شروطا مسبقة للحصول على نتائج سلوكية معينة، فاستعمال الأقوال المأثورة في الظرف المناسب يدل أولا على تفهم صحيح لها، ويدل على استيعاب غير مباشر للأقوال المأثورة التي ينشأ فيها الفرد، كما يدل على استعمال القول على التزام الفرد باتجاه ما⁽⁸⁾.

تتألف الأقوال المأثورة من عدة كلمات تؤلف في مجموعها جملة قصيرة تشير إلى نوع من السلوك له معنى أوسع في الخبرة أو الموقف المعين الذي تشير إليه الألفاظ. فتشير الأقوال المأثورة إلى مفهوم مجرد يتمكن الفرد من فهمها واستعمالها بعد أن تكون قد تخطت مرحلة معينة من مراحل نموها المعرفين ويشبه بعض اللغويين القوال المأثورة بالأساطير التي تعطي عبرا وقيما لتوجيه سلوك الإنسان على ألسنة الحيوان والجماد مثل أساطير كليلة ودمنة، غير أن الأقوال تختلف عن الأساطير بقصرها وتركيبها اللغوي الدارج والموزون.

يكرر الباحث في كتابه لفظ السلوك، باعتباره شبيها بخبرات الإنسان من الوظيفة النفسية وهو يقول: "لقد انتقيت الأقوال المأثورة في هذا الكتاب بشكل عشوائي من كمية مضاعفة لها، كناقد بدأنا جمعها منذ أكثر من ثلاثين سنة، والغاية من ذلك أخذ عينات لهذه الأقوال ومن ثم تحليلها ضمن الأبواب التسعة التي وضعناها لهذا التحليل في ميدان علم النفس"⁽⁹⁾. حاول الباحث من خلال هذا المؤلف أن يبين النواحي النفسية من خلال التحليل سلبا وإيجابا دون الوقوف عند الأشخاص الذين نادوا بها، بالرغم أن نفسية الشعر قد تعرف من خلال تحليل قوله.

قدم الباحث جملة من لأقوال التي تمجد العقل، من مصادر متنوعة (القرآن، الواقع، الأدب، اليونان، الشعراء الإنجيل) ومنها:

- ما تم دين رجل حتى يتم عقله (الإمام علي).

- الغضب ريح قوية تطفئ مصباح العقل (الجاحظ).

- إن هدف الحياة هو تأمل العقل (أرسطو).

وفي فصل المثل العليا ركز على تحليل السلوك الأدبي أو الاجتماعي للوصول إلى المثل العليا للحياة الذي يتأتى من تنظيم الدوافع الغريزية والرقابة عليها، أو التحكم الإرادي فيها، وهو تحكم ينبعث من فكرة النفس أو العاطفة المركزة حولها. فلا عجب إذا تطرقنا منه إلى الشعور بالنقص أو الاعتداد بالذات كعامل كبير في دراسة المثل العليا للحياة، ومن هذه الأقوال:

* أفضل العدة الصب على الشدة (عبد الله بن عباس).

* الحكماء يتعلمون من الحمقى أكثر مما يتعلم الحمقى من الحكماء (ماركوس كانو).

* إن كنت على حق فلا حاجة لرفع صوتك (مثل ياباني).

وأما بالنسبة لفصل الطباع، فقد اتخذ المنهج نفسه، فأورده مجموعة من الأمثال التي تحمل هذا المعنى، وكذلك في فصل الوطن وما تلاه، اتبع الباحث نفس الخطوات السابقة (المرأة، الحب، الزواج، المتشائم والمتفائل).

إن المتأمل في هذا الكتاب يرى أن الباحث قام بعملية إحصائية للأقوال المأثورة، والجهد المنسوب إليه أنه صنفها وفق موضوعات متعددة عرضها في ثنايا كتابه، فلا تمت بصلة إلى التحليل النفسي كما يوحي العنوان، وإنما ربطها بالسلوك الإنساني، وهذا طبيعي في نظري، لأن طبيعة الأقوال هي اجتماعية ونابعة من المجتمع، ولا بد من أن الإنسان السوي ذو الخبرة الحياتية هو الذي يستطيع أن يقول أمثالا رصينة ودقيقة نتيجة لما واجهه في حياته، أما أن ينسب الباحث المنهج النفسي، فلم يتبع منهجا معينا، ولم يقيم بأي تحليل، وإنما قام بعرض أقوال كثيرة ومن أقوام كثيرة أيضا.

الهوامش

- ¹ - جان نعوم طنوس، التحليل النفسي لحكايات الأطفال الشعبية، دار المنهل اللبناني، ط1، 2005، ص08.
- ² - ينظر: المرجع نفسه، ص09.
- ³ - برونو بتلهام، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، ترجمة: طلال حرب، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985، ص23-24.
- ⁴ - محمد عيسى، "القراءة النفسية للنص الأدبي العربي"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 19، العدد 01، 2003، ص22.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص29.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص29.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص30.
- ⁸ - سمير عبده، التحليل النفسي للأقوال المأثورة، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط1، 1994، ص05.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص10.

المراجع

- 1- برونو بتلهام، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، ترجمة: طلال حرب. دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985.
- 2- جان نعوم طنوس، التحليل النفسي لحكايات الأطفال الشعبية، دار المنهل اللبناني، ط1، 2005.
- 3- سمير عبده، التحليل النفسي للأقوال المأثورة، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط1، 1994.
- 4- محمد عيسى، "القراءة النفسية للنص الأدبي العربي"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 19، العدد 01، 2003.